

الصحة النفسية والمدرسة

اليامنة بوخروية

باحثة مخبر التطبيقات النفسية والتربوية – جامعة قسنطينة 2

ملخص

يتضح الدور الذي يلعبه علم الصحة النفسية في المدرسة، فعلم الصحة النفسية بمعناه الوقائي والعلاجي يقدم الأسس العلمية التي تجعل من العملية التعليمية في المدرسة عملية ذات فاعلية، ليس فقط في الوصول بها لتحقيق النجاح الأكاديمي، أو نقول التحصيل الدراسي بل أيضا الوصول بالتلميذ والمعلم إلى تحقيق درجة عالية من التوافق، والتأقلم مع الوسط المدرسي، وتوفر لديهم ما يعرف بالرضا النفسي، فيضمن للمتعلم نموا نفسيا سليما لبناء شخصيته، كما يضمن للمعلم القدرة على المواصلة في العطاء، والإبداع دون الشعور بالملل والإحباط.

كما أن علم الصحة النفسية يحمي كل من المعلم والمتعلم من الوقوع في أخطار الاضطرابات والأمراض النفسية، وتساعدهم على استرجاع صحتهم النفسية التي يهددها ضغط المشكلات المدرسية، والمهنية، والتي قد تمتد جذورها عادة إلى التنشئة الاجتماعية الأولى، لأن عملية التربية عملية دائمة ومستمرة، لا تقتصر على عهد الدراسة في المدرسة، بل تمتد إلى حياة الفرد بكاملها من المهد إلى اللحد هذه الحياة التي تبدأ نفسها من مرحلة الاستيعاب بالتقليد والمحاكاة، وتنتهي عند مرحلة الإبداع والإنتاج، واجتماعيا من مرحلة الاعتماد على الغير، إلى مرحلة الاستقلالية وحب التحرر، والاعتماد على النفس.

مقدمة

إن الحياة اليومية العادية بين الأفراد تتطلب تحقيق القدرة على التواصل، والتوافق والتكيف النفسي الاجتماعي، فكذلك الحياة المدرسية التي تعد جزءا هاما من هذه الحياة فهي تستوجب التواصل والتفاعل، وخاصة داخل حجرات الدراسة بين التلاميذ والمعلم والتلاميذ فيما بينهم، وهو ما يعرف بالتفاعل الصفي، وخارجه بين التلاميذ والإدارة، ولكي نضمن التفاعل في التواصل سواء داخل

الحجرة الدراسية أو خارجها أي في المدرسة بصفة عامة، فلا بد من مراعاة شروط الصحة النفسية لهذا التواصل من خلال عملية التدريس، أو المنهاج أو مواصفات المعلم وغيرها، والتي نادى بها علم الصحة النفسية، حتى يتحقق للتلميذ التكيف والتأقلم الدراسي، ويتجنب الوقوع في مشكلة سوء التكيف المدرسي، كما يتحقق للمعلم التكيف والتوافق المهني.

فعمل المدرسة ليس مجرد ساعات من الزمن يقضيها التلميذ داخل القسم، ليلقن من خلالها قدرا معيناً من المعرفة والمعلومات، وإنما يتطلب هذا العمل فاعلية الموقف التدريسي نفسه من خلال إقامة علاقات قوية وناجحة، وصحية نفسياً تراعي شروط النمو النفسي للمتعلم، وتتطلب توفر مواصفات في المعلم الصحيح والسليم نفسياً، القادر على إدارة وقيادة القسم قيادة حكيمة وصحية، تنمي النفس والفكر معاً لنضمن تكويناً معرفياً وفكرياً

ونفسياً سليماً لشخصية المتعلم، وهو من سيكون مواطن المستقبل، لمجتمع سليم ومعافى من الأمراض النفسية.

وسوف نقوم باستعراض بعض الأطر النظرية، والدراسات السابقة عن الصحة النفسية مضمونها وعلاقتها بالمدرسة، وبأهم العناصر والأطراف الأساسية في العملية التربوية والتعليمية، ولنا بعد ذلك أن نقابلها بما هي عليه المدرسة الآن في مجتمعنا الجزائري من خلال إحدى ثانوياتها.

ونحاول أن نتعرف عليها من خلال علاقاتها ومواصفاتها، ومقارنتها بما تم تأسيسه نظرياً من طرف علماء النفس والتربية.

الصحة النفسية والمدرسة، وما يجب أن يتحلى به كل من المعلم والتلميذ، والتفاعل بينهم وبين المعلمين فيما بينهم، وبينهم وبين إدارة المدرسة وأولياء أمور التلاميذ.

أولاً: علم الصحة النفسية وعلاقته بالوسط المدرسي:

الصحة النفسية شأنها شأن الصحة الجسمية، يجب النظر إليها على أنها منتهى ما يسعى إليه الفرد من خلال سلوكه وتفاعله في الحياة مع من حوله، وعلى هذا فهي منتهى طريق طرفه الآخر هو المرض النفسي⁽¹⁾.

ارتبط مفهوم الصحة النفسية بمعنى التكيف، والتوافق ويقابل التوافق "Ajustement" طرفان هما التلاؤم "Adaptation" والرضا "Satisfaction".

التلاؤم هو التأقلم مع البيئة المادية، ومطالب الواقع والمحيط الثقافي، أو البيولوجي، ويكون مصحوبا بالرضا أي إحساس وشعور الإنسان بالسعادة، ولا يحي صراعات نفسية داخلية، والتي تنعكس إلى خارجه في صورة سلوكيات شاذة أو انحرافات.

والمدرسة هي المؤسسة التي أنشأها المجتمع لمباشرة عملية التنشئة الاجتماعية لأبنائه، فهي تحقق للتلاميذ فرصة اكتساب مميزات لها قيمة في الحياة العملية والميدانية، حيث يكتسب المعارف والقيم الأخلاقية، وكل ما تعجز الأسرة عن توفيره له، كما يجب أن تساهم بدور كل من فيها المعلم والإدارة في فهم مشكلاتهم المرتبطة بأهم مرحلة من مراحل النمو النفسي، والاجتماعي لشخصيتهم، وهي مرحلة المراهقة وتتيح للمراهق المتعلم فرصة تكوين اتجاهات صحيحة إزاء العالم الخارجي، وتكون المدرسة من خلال برنامجها التربوي ومنهجها التربوي، شباب الحياة المستقبلية للمجتمع.

"فالمدرسة تعمل بطبيعة الحال على ناشئة في مرحلة نمو معينة، فبعض أهداف المرحلة التعليمية تستمد من مطالب نمو الناشئة في هذه المرحلة، حتى تيسر لهم أكمل نمو ممكن بأحسن طريقة وأن يكيف الجو المدرسي العام وفقا لمميزات نمو الناشئة في هذه المرحلة (2) ."

والمدرسة تعمل على إكساب عادات للناشئة، أي عملية تعلم، وهذه العمليات تعتبر لب العمليات التربوية كلها، والتعلم في المدرسة يعتمد على الدافعية وسمات النمو العامة، أي مستويات النضج، ويؤدي إلى إكساب التلاميذ مجموعة من العادات والمهارات في مختلف نواحي الشخصية.

كما أن المدرسة من خلال برامجها، وطرق التدريس فيها تراعي داخل المدرسة الواحدة أو القسم الواحد وجود الفروقات الفردية بين المتعلمين.

ومن بين المواصفات التي نريدها لمنهجنا المدرسي في مجتمعنا أن يتصف بها، هو الجمع بين المعيار الكلاسيكي والنفعي.

الكلاسيكي القائل بقيمة المواد الدراسية من الناحية الذاتية، أين تكون الدراسة العقلية أرفع مرتبة من الدراسة التي تعتمد على المحسوسات والأشياء المادية، ولأن العملية النافعة وسيلة لا غاية، ولا قيمة لها إلا بالنسبة إلى الغاية التي تهدف إليها، وهي المنفعة، وإن كل وسيلة هي أدنى من الغاية وأحقر منها، وإن نسبتها إلى غايتها كنسبة العبد إلى سيده، فغاية الدراسات العقلية في ذاتها، ومن هذه الفنون العقلية والكلاسيكية، نجد المنطق، الفلسفة، اللغة النحو، البلاغة، وكلها فنون عقلية تسعى إلى تعليم التلاميذ حسن التفكير.

ومن جهة أخرى يجب أن يأخذ المنهاج بعين الاعتبار معيار المنفعة في نتائج المعرفة كوسيلة موضوعية، وهذا ما نجده في العلوم التجريبية والتقنية، وهذه حقيقة المعرفة الإنسانية في طبيعتها أنها متكاملة تجمع بين النظري والتطبيقي، بين المجرد والمحسوس شأنها شأن حياة الكائن الحي، جسمها العلم وروحها الفلسفة، فالعلم مادي موضوعي والفلسفة ذاتية مجردة.

وعلى هذا الأساس يجب أن تعطي المدرسة في مجتمعنا قيمة أكثر للمواد التي تنمي الفكر على التحليل والنقد والتأمل في أمور الحياة بالعقل.

فحبذا لو اشتركت هذه المواد مع المواد التجريبية في نفس المعاملات التي تعطى لها، حتى نجلب اهتمام التلاميذ، ما داموا يتميزون بالطابع المادي والموضوعي في تفكيرهم.

كما يجب أن يراعي المنهاج من حيث محتواه أيضا تناسبه مع الحجم الساعي، حتى لا تقل الدروس التطبيقية على حساب كثرة الدروس النظرية، وذلك من أجل أكثر تدريب لتلاميذنا على حل التمرينات وإنجاز المقالات.... الخ.

فعدم تقبل المتعلمين أو عدم تكيفهم مع المنهاج يتسبب في مشكلة متعلقة بالتحصيل الدراسي، إذ يتحصل التلميذ على درجات ضعيفة، مما يتسبب في إثارة القلق والإحباط لديهم، يليها اللامبالاة، والكراهية والخمول إزاء التعلم، وكذلك الهروب النفسي والحسي والشعور بعدم الانسجام، أو اللجوء إلى مختلف الوسائل غير المشروعة تربوياً وأخلاقياً ودينياً، كالغش للحصول على درجات جيدة في امتحانات مختلف المواد.

وهي أهم بعض النتائج التي نتوقعها عندما لا يتلاءم المنهج وأساليب التقويم مع حقائق النّمو والتعلم، وكلها تدل على تأثير المنهج على الجانب النفسي للمتعلمين.

فأين كنا نطمح في أن تهيئ المدرسة الجو النّفساني المناسب لإعداد أجيال ورجال الغد، فبفشلها في خلق ذلك الجو، بسبب ضعف منهاجها تربوياً، أو مدرسيها فنياً، أو إدارتها تقنياً، فهي تنتج بذلك الأفراد العاجزين على التأقلم مع وسطهم الثقافي والبيئي، وبالتالي المساهمة في إنتاج الرداءة، وتشجع بطريقة غير مباشرة على نشر ثقافة الغش واللامبالاة والكسل والخمول.

فإن أردنا لمدرستنا أن تهتم بالكيف والكم المعرفي معاً، وتكسب تلاميذها حسن التفكير المنطقي، فلا يجب أن تهتم بحشو أذهانهم بمعارف تفوق قدراتهم العقلية، ولا يستفيدون منها عملياً، وحتى لا يكون وجودها شكلياً أو إدارياً

فحسب، يجب أن لا تتوفر فقط على مواد معرفية، بل يجب أن تكملها أنشطة تربوية وفنية كالرسم والموسيقى والمسرح والرياضة.... الخ.

إذ التربية الجمالية الفنية والرياضية لها أثر إيجابي على نفسية المراهق والمتعلم بصفة عامة، ومن شأنها أن تخفف من الضغوطات النفسية لديه.

فتحدث لديه نوعاً من التوازن النفسي بعد عملية التفريغ الانفعالي، كما تنمي فكره ومواهبه وقدراته العقلية كالذكاء والتخيل، ما يساعده في عملية التعلم.

- وإن كانت هذه الأنشطة موجودة في المتوسطات، فيجب أن يكون وجودها بطريقة صحيحة في الثانويات والمدرسة الابتدائية أيضاً .

فالرسم والموسيقى لا تخصص لها حجرات عادية للدراسة النظرية فحسب، بل ورشات مجهزة بكل الوسائل والآلات اللازمة للعمل الفني والإبداع، وكذا مسرحاً تجري فيه الحفلات، وتعرض فيه عروضاً مسرحية، من خلالها ينقمص المتعلم أدواراً اجتماعية يعبر من خلالها عن مشاعره، وعن ما يعانيه من مشكلات نفسية أو اجتماعية. وهكذا قد يدرك بنفسه مشكلته ويساهم بدوره في حلها، من خلال التعبير والإدراك العقلي لها، وهي مشكلات مرتبطة بمرحلة نموه النفسي والاجتماعي، أو مشكلاته المدرسية.

كما نأمل لمدرستنا بالجزائر أن تعطي قيمة أكبر لمادة الرياضة، بتوفير ساحة خارجية خاصة بها فقط ولا تمارس كما تمت ملاحظته في معظم مدارسنا في فناء المدرسة، أين يجتمع كل التلاميذ أثناء دخولهم إلى الأقسام، وبعد خروجهم منها وأثناء الراحة.

وأن تخصص للرياضة أيضاً قاعة داخلية تستعمل وقت الشتاء، وأثناء سقوط المطر، إلى جانب ذلك قاعة للدراسة النظرية، باعتبار الرياضة فن وعلم قبل أن تكون مجرد نشاط فيزيائي، فهي لا تجعل المتعلم سليم الجسد فحسب بل الفكر والنفس أيضاً.

- إلى جانب ذلك يجب أن تتوفر المدرسة على بناء معماري جميل ومتناسق، يعطي نظرة جميلة تجلب التلاميذ إليها، وتتوفر على حدائق خضراء، مع توفر النظافة والتهوية والانتساع في الأقسام والمدرجات، فتصبح بذلك المدرسة الجزائرية قادرة على التكوين الفعال معرفياً وفنياً ورياضياً ومهنياً.

وهكذا يتخرج منها العالم والموسيقي والتشكيلي والحرفي والرياضي فتصبح وسطاً حيويًا بإمكانه أن يكتشف ذوي الاتجاهات الإيجابية نحو الدراسة، أو ذوي المواهب إزاء إحدى هذه النشاطات الممارسة فيها. فتكون وسطاً ثقافياً متكامل فيه

كل الأنشطة التربوية والعلمية والفنية، كل متكامل، فيجد فيها التلميذ المتعلم ما هو أصيل نريد المحافظة عليه كالمبادئ الدينية، والأخلاقية والعلمية، وكذلك ما هو عصري يثير اهتمامهم، كالإعلام الآلي والإنترنت، والأنشطة التربوية والفنية.

كما يجب أن تتوفر المخابر العلمية في مدارسنا على ما ينقصها من الوسائل التقنية الحديثة وأن توفر لها المواد الكيميائية، من أجل القيام بالتجارب العلمية على أحسن وجه.

إضافة إلى ذلك يجب أن تحفز المدرسة في مجتمعنا تلاميذها على القراءة، وتكسبهم ثقافة المطالعة، وذلك بإنشاء حصص تابعة للغات الأجنبية ولمادة اللغة العربية، تدعى بـ حصص المطالعة داخل المكتبة مع وجود المعلم، ومن يكون في المكتبة هو من ذوي التخصص في علم المكتبات .

وهذا من شأنه أن يرجع للكتاب قيمته، إذ أصبح الإعلام الآلي والإنترنت الأداة المفضلة لدى تلاميذنا لإنجاز العروض والبحوث، وإن كنا لا ننكر قيمة الوسيلة الإعلامية، ولكن ليس إلى درجة أن تنفي استعمال المتعلم للكتاب، فقراءة الكتاب تحافظ على حياة العقل كجهاز آلي، فحياته تكمن في التفكير والممارسات الذهنية كالتحليل والتركيب والمقارنة والاستنتاج والتعميم، والتي يمارسها قارئ الكتاب.

فتصبح مدرستنا بذلك عالمًا لا يثير القلق والإحباط، ولا تجعل المتعلم ينفر منها ولا يمل المعلم من العمل فيها.

1/ الصحة النفسية والتلميذ:

التلميذ هو أساس العملية التربوية كلها، وهو من يتحمل نجاحها أو فشلها، وإن كان هو عضواً فعالاً مساهم في نجاح العملية التعليمية من خلال تحصيلهم الدراسي، وتفوقهم وقبل ذلك اهتمامهم ومشاركتهم في النشاط التربوي التعليمي داخل القسم.

إن تكوين التلميذ العقلي والنفسي في ظل التربية التي تقدمها المدرسة يحقق أهدافه، إذا كان هناك مدرسة جيدة التصميم والإدارة والمدرسين، إضافة إلى منهج ملائم يحقق ويشبع حاجات التلميذ، ويمكنه من فهم ذاته ومحيطه الثقافي والاجتماعي، والتغلب على مشكلاته النفسية والمدرسية، وكذا الأسرية وغيرها.

إذن لا بد أن تتكامل أدوار وجهود كل من في المدرسة لخلق تلميذ اليوم، ورجل الغد إنساناً صحيح الجسم، والعقل والنفس، وبالتالي مواطناً صالحاً قادراً فيما بعد على تكوين غيره من الأجيال.

ولهذا يقول باسمارك فيما معناه: من يحسن إدارة مدرسة إنما يحسن إدارة مجتمع⁽³⁾.

ويتكفل علم النفس بدراسة مراحل النّمو دراسة تفصيلية، يجب أن يستفيد منها كل من له علاقة بالتلميذ في المدرسة، ويتكفل علم الصحة النفسية في جانبه الوقائي بالتركيز على الكيفية التي تبنى بها الشخصية الإنسانية، ومحرّكات السلوك والدافعية وغيرها من العوامل التي تفيدهم في تطوير هذه الشخصية، وجعلها شخصية في بنائها متكاملة الجوانب الجسمية النفسية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية، وعلى المهتمين بالعملية التربوية كل في مجاله، أن يأخذ بعين الاعتبار بجميع هذه الأسس، والخصائص النفسية عند التخطيط والتنظيم أو التنسيق أو المتابعة والتقييم.

فكلما كانت هناك رعاية صحية وقائية مسبقة لكل هذه العمليات، تم ضمان نجاح المنظومة التربوية والحفاظ على كل طاقاتها المنتجة والعاملة، من الإدارة والمعلم والتلميذ، وتقليص الحاجة إلى العلاج والإصلاح.

- ومن خلال ممارستنا لمهنة أستاذة تعليم ثانوي لمادة الفلسفة لمدة 15 سنة، وعبر ثانويات متعددة، والتي يتراوح عددها (10) ثانويات مكنتنا هذه الخبرة الميدانية من اكتشاف بعض الخصال والصفات، التي يتحلى بها التلميذ داخل القسم والمدرسة بمجتمعنا الجزائري. وهي المواصفات قد تتنافى مع تلك التي تم تحديدها نظرياً، والتي تسمح للتلميذ بتحقيق توازنه النفسي، وتضمن له التوافق المدرسي، والذي يدعو إليه علم الصحة النفسية في مجال التربية والتعليم.

إذ أصبح أغلب تلاميذنا في مدارسنا يبحثون عن المواد الدراسية التي تكون لها منافع علمية ولها قيمة مادية في الحياة، أكثر من اهتمامهم بالمواد الأدبية والفلسفية، التي تنمي الفكر والعقل والروح معاً، فهم يهتمون مثلاً بالعلوم التجريبية، ولا يهتمون بالفلسفة خاصة بالنسبة للأقسام العلمية، فهم يتساءلون عن أهميتها وعن قيمتها...؟

فالدراسة على هذا الأساس لا تعد بالنسبة لهم تكويناً ذاتياً، بل نظرتهم لها موضوعية ومادية ينتظرون النتائج دون عمل واجتهاد، مما يدفعهم إلى الحصول عليها بوسائل غير مشروعة أخلاقياً ولا تربوياً ولا دينياً. كالغش الذي أصبح

وللأسف الشديد ظاهرة مستمرة ومحبذة لدى تلاميذنا ودون تصدي لها يزداد انتشارها أكثر فأكثر.

وهذا ما تؤكده ملاحظتنا لهذه الظاهرة، أين كنا معنيين بالحراسة في مراكز إجراء امتحان شهادة البكالوريا ولسنوات متعددة ومتكررة أي في دورات عديدة.

- كما تصدر على تلاميذنا تصرفات داخل القسم وخارجه، أي في المدرسة بصفة عامة لها علاقة بخصائص النمو النفسي والاجتماعي للمراهق، منها حب الاستقلالية والتحرر عن سلطة الأنا الأعلى، الذي يتمثل في دور كل من المعلم والإدارة، فقبول الدراسة وكأته بالنسبة للتلميذ المراهق (من هو في الثانوية) قبول لأوامر سلطة الأنا الأعلى، ولهذا فهو يحيا صراعاً نفسياً ينعكس في حالة القبول أو الرفض لأوامر الأنا الأعلى، ويترجم ذلك الرفض إلى سلوكيات عدوانية أو عنف أو لامبالاة وعدم اهتمام بالدراسة، وهذا ما يعتبره الطرف الآخر في المدرسة أي المعلم أو الإدارة انحرافاً في السلوك.

أما التلاميذ فهم يبررون ذلك بوجود ظروف، هي التي تحد من قدراتهم العقلية ومن نشاطهم واهتمامهم منها (كثافة البرنامج وصعوبته والتوقيت المكثف للدراسة طيلة الأسبوع).

وربما نحن نرى أنه لسبب آخر بسبب الإرهاق، الناتج عن ظاهرة اجتماعية أخرى، وهي الدروس الخصوصية في أغلب المواد، وهذا ما أثر سلباً على حضورهم داخل القسم ومراجعتهم لدروسهم داخل منازلهم بأثمان باهظة.

- لقد تمت ملاحظة هروبهم من التكوين المعرفي داخل القسم، لأخذ تطبيقات ومقالات جاهزة الحل تعطى لهم في الدروس الخصوصية، وهذا ما أثر سلباً على مستواهم المعرفي والعلمي.

2/ الصحة النفسية والمعلم:

من بين مواصفات المعلم السليم نفسياً كما يرسمه علم الصحة النفسية، نذكر منها: معلم القسم كقائد فهو الذي يبني الأجيال، وينمي الفكر، ويغير ما أفسدته الأسرة والشارع أو الإعلام والرفاق، فالمعلم هو الشخص الذي يغير ويبني فكر المتعلمين دون أن يكون ديكتاتورياً أو شخصاً ثقیلاً الظل⁽⁴⁾ فيكون مغيراً وفعالاً بالنسبة للمتعلّم من خلال أعماله الكبيرة، وليس من خلال أفكاره.

وعمله نعني به إخلاصه فيه، وحبّه له، والجديّة والعزم، والإبداع في تقديم المعارف بتوضيحها وتفسيرها نظرياً، إلى جانب أعماله التطبيقية.

إلى جانب ذلك سلوكه وأخلاقه وكيفية تعامله مع المتعلمين وغيرهم، إذن عمل المعلم في القسم لا يعني به المهنة في حد ذاتها، والتزامه بالقيام بواجبه على أكمل وجه، بل أعمق من ذلك كل ما يصدر عنه من سلوك داخل القسم أو خارجه.

فيكون بذلك قدوة حسنة، ونموذجاً صالحاً للمتعلمين، الذين لا يجدون تناقضاً بين المعارف والقيم التي ينادي بها المعلم ويدرسها لتلاميذه، وبين ما يصدر عنه من أعمال وسلوكات مهنية وأخلاقية.

ومن بين هذه الأعمال نذكر ما يلي⁽⁵⁾:

- القدرة على تعليم التلاميذ، كوضعه لخطط الدروس بطريقة فعالة، واستعمال أساليب التدريس المتنوعة.
- استخدام الأساليب الملائمة لتقييم التلاميذ.
- إرشاد وتوجيه التلاميذ بحكمة.
- مساعدة التلاميذ على فهم و تقدير الميراث الثقافي.
- المساهمة بفاعلية في مختلف النشاطات التي تمارس في المدرسة.

ولكي تتحقق هذه الفعالية من طرف المعلم، يجب أن تتوفر في المعلم الفعّال جملة من الخصائص والمؤهلات كالتي كشفت عنها دراسات وتلي "Withly" (1948) وهناك دراسات أخرى في أمريكا كانت مبنية على رسائل تتناول موضوع " المدرس " وتلقى الباحث 1200 رسالة كتبها تلاميذ من المرحلة الثانوية وفي مستوى طلبة الكليات، وقد حلت الرسائل بإمعان لمعرفة تلك السمات التي يتكرر ذكرها أكثر، وهي اثنا عشر كالآتي⁽⁶⁾:

- التعاون بمنطلق ديمقراطي.
- العطف ومراعاة مشاعر الآخرين.
- الصبر.
- الاهتمامات الواسعة.
- السلوك الحميد والمظهر الحسن.
- العدل والنزاهة وعدم التحيز.
- المرح (ملكة الدعابة).
- الحزم مع اللين.
- الاهتمام بمشاكل التلاميذ.
- المرونة.
- الرغبة في التشجيع والإطراء.
- البراعة في تدريس المادة وهذه الأخيرة ذات أهمية كبيرة.

ومن خلال معايشتنا للميدان التربوي والمدرسي تمكنا من اكتشاف بعض الصفات المغايرة لتلك التي تم تحديدها نظرياً، وهي تتوفر عند أغلبية المعلمين تدل على عدم تكيفهم المهني، وبالتالي تؤثر سلباً على التوافق المدرسي لتلاميذهم نذكر منها ما يلي:

- دخولهم إلى القسم وعليهم علامات التردد .
- لا يعتزرون بمهنتهم والكثير منهم يقلل من شأنها في أحاديثهم وتصرفاتهم.
- الكثير منهم يأتي من الأعمال ما يسيء إلى هذه المهنة النبيلة، من ألفاظ قبيحة أو مظاهر سلوكية غير أخلاقية.
- غير متفرغين لعملهم في القسم، بل خارجه أي الدروس الخصوصية، وإن كان العيب ليس فيها بل في الطرق التي تمارس بها، على سبيل المثال عدد التلاميذ في الفوج الواحد يتراوح بين 40 إلى 45 تلميذ أو أكثر عند الأغلبية منهم، وربما تفوقها للوصول إلى عدد خيالي 70 تلميذ بالنسبة لأقسام الشعب العلمية بأثمان باهظة 1800 دج شهرياً للتلميذ الواحد.
- وهم لا يمنحون للتلاميذ تكويناً معرفياً، بل تمرينات ومقالات جاهزة الحل.
- كما أن العلامة خلال التقويم المستمر أو الامتحانات أصبحت تعطى لمن لا يستحقها سواء أكانت عالية أو منخفضة.

- فأصبح المعلم في المدرسة الجزائرية، يعاني من طغيان المادة على الفكر والقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية.

ولكن مهما تغيرت الظروف أو صعبت، فلا بد على المعلم دون سواء أن يحافظ على مكانته العلمية، وعلى أداء رسالته الأخلاقية، لأنه ينتمي إلى نخبة العلم والفكر، وهو صانع القيم لدى الأجيال، فلا يجب أن يكون هو من يفقدها.

أما عن الأقلية من فئة المعلمين، فهم يعيشون الصراع النفسي، والتناقض بين ما يمليه عليهم ضميرهم، وما هو مجسد في واقعهم المدرسي، فهم بكل الوسائل يجتهدون ويحاولون القيام بهذه المهنة النبيلة على أكمل وجه، لكنهم يصطدمون مع عدم تقبل معظم التلاميذ داخل القسم للدراسة وللعمل والاجتهاد، وابتعاد وتخلي سلطة الإدارة عن دورها الفعال والحقيقي في مساعدتهم، على خلق جو الانضباط والالتزام والصرامة داخل المدرسة.

وإن كانت الأقلية تمثل المعلم الجزائري في أحسن صورة له، على أنه صاحب ضمير يعمل بجد، ويحب مهنته ويكتسب خلال سنوات تدريسه فنيات تمنحه القدرة على الإبداع والابتكار، وتقديم الأنفع للمتعلمين، لكن هناك عوامل تدخلت في مهنته وأطاحت ببعض مقدسات هذه المهنة الشريفة نذكر منها:

أ / كثافة البرنامج مقارنة بالحجم الساعي:

لا يستطيع المعلم تقديم كل درس بشكل فني مثير يستقطب المتعلم، لأنه مرتبط بزمان محدد يعد ضيقا إذا ما تمت مقارنته بالبرنامج الدراسي.

ب / نوعية المتعلمين:

هناك اختلاف في نوعية المتعلمين باختلاف بيئاتهم، فالمدينة تختلف عن الريف وباختلاف قدراتهم، إذ نجد مجموعة من التلاميذ الفاشلين الذين يفكرون في عرقلة سير الدرس، وإزعاج المعلم، وباختلاف ثقافتهم، لاسيما ثقافة النجاح دون بذل جهد قد راجت كثيرا في مؤسساتنا بغض النظر عن خلفياتها.

ج / الخبرة المهنية:

يمكن تصنيف المعلم إلى:

* معلم يفتقد للخبرة: أي له كفاءة علمية، لكن ليس له أداء فعلي كاف لعملية التعليم، وبالتالي فهو يحتاج لدعم ووقت أكبر للتأقلم.

* معلم يفتقد للكفاءة: أي له أداء مهني واسع (خبرة سنوات)، ولكن ليست له كفاءة وبالتالي يحتاج إلى إعادة بناء معارفه.

* معلم له كفاءة وأداء: هذا له كفاءة علمية وخبرة مهنية، لكن لا يجد الجو النفسي المناسب، إذن فهو لا يستطيع العمل.

* معلم له أداء مهني: إن المعلم الجزائري يعمل لمدة طويلة مقارنة بغيره، وهذا يكسبه خبرة مهنية عالية، لكن إذا طال عمله نفذ مخزونه الطاقوي، وأصبح عديم الجدوى لأن له الكفاءة، وليست له القدرة على المواصلة (فشل).

3 / الصحة النفسية والتدريس:

إنّ التدريس الفعّال بمثابة فن مؤسس على علم، أو هو علم يقوم على فن، حيث يقوم العلم على السيطرة والإدراك الكاملين للجانب الأكاديمي، المتمثل في معرفة المعلومات العلمية الصحيحة المقررة على التلاميذ، ويقوم الفن على الوسائل التي من خلالها يمكن توصيل هذه المعلومات توصيلا جيدا وسهلا للتلاميذ⁽⁷⁾.

بمعنى التدريس هو حسن اختيار الطرق والوسائل، وتهيئة ظروف وجو نفسي مناسب، ينتج عنه انسجام وتكيف، وتفاعل طرفين أساسيين في عملية التدريس هما المعلم والمتعلم، لتصل المعارف والمعلومات إلى ذهن هذا الأخير بنوع من التدرج والوضوح والدقة.

وهذا التفاعل يجعل المعلم يشعر بالرضا النفسي قبل وبعد كل حصة، مما يعطيه حيوية ويجعله أكثر قابلية للإنجاز، فتنشط بداخله طاقة العطاء.

وفي المقابل المتعلم، فهو يتقبل المعلم وكل ما يصدر عنه، وله ثقة كبيرة فيه، فيكون في حالة انسجام وتوافق يشعر هو الآخر بالرضا النفسي دون قلق ولا توتر .

وعلى مستوى التدريس يقدم علم الصحة النفسية في جانبه الوقائي بعض أساليب الرعاية النفسية والعقلية من أجل خدمة التدريس، وللأسف الشديد غابت عن مدارسنا أو توجد بصورة شكلية أو غير دائمة، وإن كان من الضروري توفرها من المرحلة الابتدائية إلى الثانوية نذكر منها(8):

- التعبير بوسائل مختلفة، إما عن طريق الرياضة التي توفر للمتعلم فرصة التعبير عن طاقاتهم الكامنة، وتجديد نشاطهم، والتخفيف من القلق والتوتر وهي طريقة لتأديب التلاميذ.

- التعبير من خلال المناقشة: فالمناقشات الجماعية يمكن أن تساعد المتعلم على التعبير عن نفسه، كما أنه يشعر بمشاركة الغير في مشاكله، مما يسبب له الراحة.

- التعبير من خلال الكتابة: الكتابة لها تأثير كبير على تهدئة الانفعالات، والنظر إلى المشكلة بموضوعية أكثر، إلى جانب التعبير الشفوي.

- الفنون والموسيقى: للفنون والموسيقى قيمة علاجية كبيرة، عملية تساعد على التفريغ الانفعالي، ولها قيمة اجتماعية.

- الأدوار التمثيلية: ميل التلاميذ وخاصة الصغار منهم في المدرسة الابتدائية إلى الانشغال بالتمثيل المسرحي، لأن الطفل في هذه المرحلة وقبلها يتعلم بالمحاكاة والتقليد، وهذا ما يجعله يرغب كبيرة في تقمص الأدوار الاجتماعية فالفن المسرحي يساعد التلميذ على الاندماج في المجتمع، وفهم الأدوار والعلاقات فيه .

- القراءة: القراءة لها تأثيرها على الصحة النفسية للتلميذ، وتنمي قدرات عقلية لديه الذاكرة والتخيل، وقدرات لغوية، اكتساب ثروة لغوية من المفردات، القدرة على التعبير والفصاحة، كما تساهم في اكتساب القدرة على فهم وتحليل عناصر

المشكلة وكيفية حلها تلك التي يعرضها النص، والتي قد تكون قريبة من مشكلته أو من واقعه.

وإن كانت كيفية التدريس بهذه الفعالية تحتاج إلى أن يتوفر لها جوها التربوي والبيداغوجي وبرنامجها الخاص، وتدريب المعلم على ممارستها، فهي غير صالحة مثلاً داخل القسم الذي يبلغ عدد التلاميذ فيه بين 35 إلى غاية 50 تلميذ في بعض الثانويات، التدريس في مجتمعنا يجب أن يتطور في وسائله المعرفية والبيداغوجية، حتى يكون مناسباً لتطور فكر المراهق وتطور الظروف المحيطة به اجتماعياً وثقافياً.

ثانياً: أهمية التفاعل داخل الوسط المدرسي:

1/ التفاعل الصفّي بين التلميذ والمعلم:

يشكل التفاعل بين المعلم والتلميذ الركيزة الأساسية في المواقف التعليمية، لأنه لا يؤدي فقط إلى تحقيق الأهداف التعليمية الخاصة بالدرس، بل يؤدي أيضاً إلى اكتساب التلميذ لأنماط ثقافية واجتماعية مختلفة سواء من المعلم أو من التلاميذ الآخرين، لأن التربية عملية تربوية واجتماعية ونفسية.

ويؤثر الجو الاجتماعي والنّفسي السائد في حجرة الدراسة، على نمط التفاعل بين المعلم والتلميذ، الذي يؤثر على دافعية المتعلم، التي تؤثر بدورها على تحصيل التلاميذ، وعلى قدراتهم لبلوغ الأهداف التربوية.

ويمكن أن نحدد بإيجاز فائدة التفاعل فيما يلي:⁽⁹⁾

- يساعد المعلم على تطوير طريقته في التدريس، عن طريق إمداد التلميذ بمعلومات حول كل من سلوكه التدريسي داخل القسم، ومعايير السلوك المرغوب فيه.

- يزيد من حيوية التلاميذ في الموقف التعليمي، إذ يعمل على تحريرهم من حالة الصمت والسلبية والانسحابية، إلى حالة المناقشة وتبادل وجهات النظر حول أي موضوع أو قضية ما.

يتكون الجو العاطفي ويستمر إذا ما استطاع كل من المعلم والمتعلم التركيز على ما يلي:⁽¹⁰⁾

- أن يتقبل كل منهما أفكار الآخر، وليس من الضروري أن يتفقا معاً.
- أن تتسم العلاقة بينهما بالصدقة وحسن التقدير والاحترام المتبادل.
- أن يساعد المعلم كل متعلم على الشعور بحرية المشاركة في المناقشة.

- أن يزيل المعلم التوتر الذي قد ينتاب بعض المتعلمين، كما يجب أن يشارك في حل الصراعات الشخصية التي قد تنشأ بين بعض المتعلمين.
- أن يحلل المعلم أفكار المتعلمين، ولا يكون حكمًا أخلاقيًا على أدائهم دون مبرر أو دون وجه إقناع.

- يساعد على اكتساب التلاميذ اتجاهات ايجابية نحو المعلم، ونحو المادة الدراسية، وكذلك نحو زملائهم، حيث ينمي لديهم مهارات الاستماع والتعبير والمناقشة، وذلك بما يوفره المعلم لتلاميذه من أمن وعدالة وديمقراطية.
- يرفع من مستوى تحصيل التلاميذ، ويقوي تعلمهم، من خلال قيام بعضهم بشرح الجزئيات الغامضة لمن هم أقل منهم مقدرة على الفهم الصحيح.

لكن التفاعل بين التلميذ والمعلم يكاد يكون منعدما بالنسبة لأغلبية الأقسام في ثانويات الجزائر، إذ أصبح أداء المعلم للدرس شكليا أكثر منه تربويا، وهو أمام فوضى التلاميذ ولامبالاتهم بالمادة، والمشاركة السطحية الغير منظمة للأقلية منهم، والتي يعجز عن تنظيمها أو تسييرها، فأصبح كل منهما أي المعلم والتلميذ يعاني من الملل والقلق، وتلاحظ عليهما علامات التردد تردد التلميذ على الدراسة، إنه يريد النجاح دون اجتهاد، وتردد المعلم على التدريس، وإن كان يريد العمل من أجل تفاضي الأجر الشهري.

فقد كل منهما الحماس، وحب البقاء داخل حجرة الدراسة ليغيب التفاعل بين أهم طرفين صانعين لنجاح العملية التعليمية والتربوية.

وسبب فشلها ربما يعود إلى أطراف أخرى داخل المؤسسة التربوية أو خارجها، كالإدارة وأولياء أمور التلاميذ، ومحتويات المنهاج، والمحيط الثقافي بصورة عامة، أين أصبح العلم بالنسبة لهم ليس غاية في حد ذاته، بل مجرد وسيلة لتحقيق نجاحا غير فعالاً.

2/ التفاعل بين المدرسين:

صحيح أن التفاعل الصفّي هو أساس التحصيل الدراسي للمتعلم، وللتوافق المهني للمعلم ولكن العلاقات المهنية بين المدرسين في مجال انطلاق آخر خارج القسم له فاعليته الكبيرة في تحقيق التوافق المهني، وفي تدعيم أبعاد الصحة النفسية لدى المعلم، وبالتالي لدى المتعلم أيضاً.

فلا بد أن تسود المدرسة روح التعاون بين المدرسين، وضرورة التنسيق المعرفي والبيداغوجي بينهم، والثقة في بعضهم البعض.

ويجب تفادي التناقض، والحساسيات، والفردية، وتوجيه الاتهامات بالإهمال والضعف، أو أن يحاول كل منهم إظهار أن مادته هي الأفضل، وأنه هو الأقدر بين المدرسين.

إن مثل هذه العلاقة باختصار تلحق جواً غير مناسب للنمو المهني، وللصحة النفسية للمدرس بل إنها كثيراً ما تنعكس بأخطائها على التلاميذ، وتؤثر بالتالي على النمو الصحي النفسي لهم وما تمت ملاحظته في الثانويات غياب هذا التنسيق الفعال بين المدرسين، والذي من شأنه أن ينمي معارفهم، وينعكس نفسياً على شعور تلاميذهم بأهمية كل المواد، وأن المعرفة الإنسانية هي كل متكامل.⁽¹¹⁾

3/ التفاعل بين المدرس وإدارة المدرسة:

إنّ العلاقة بين المدرس ومدير المدرسة كلما كانت أكثر فاعلية، كلما ساعدت على خلق قناة اتصال في إطار تعاوني، واحترام متبادل لتحقيق النفع العام، وفي ظل الاحترام المتبادل والعلاقات الطيبة بين المدرس والإدارة، تتدعم جوانب الصحة النفسية للمدرس، وتسهل معالجة المشكلات المدرسية، ويقدر كل طرف ظروف ومشاكل ومسؤوليات الآخر، ويسير العمل المدرسي نحو أهدافه بعيداً عن التوتر والقلق والحساسيات، والمهاجمة، والتمرد وغيرها من مردودات غياب العلاقات الإنسانية في الجماعة.

فالمدرس بالنسبة للمدير كالتلميذ بالنسبة للمدرس، لتحقيق التوافق المهني للمدرس، يجب على المدير أن يراعي ظروفه، ويدرك حاجاته، ومستعداً على أن يقدم له يد المساعدة لحل مشكلاته النفسية الاجتماعية أو المهنية.

وفي مساعدته له، نجاح العملية التدريسية والتربوية، وما يعود بالفاعلية على التحصيل الدراسي للمتعلمين، ففاقد الشيء لا يعطيه، فإذا كان المعلم غير سليم نفسياً فليس بإمكانه أن يضمن الصحة النفسية لتلميذه.

يقول جون ديوي: "إنّ بإمكان المدرسة أن تغيّر نظام المجتمع إلى حد معين، وهذا عمل تعبر عنه المؤسسات الاجتماعية الأخرى"⁽¹²⁾

فإدارة المدرسة في مجتمعنا من خلال ما تمت ملاحظته ميدانياً في الكثير من الثانويات أنها ابتعدت عن دورها الحقيقي والجوهري، إذ هي من تمثل السلطة داخل المؤسسة التربوية مسئولة عن خلق جو الانضباط في صفوف المعلمين والمتعلمين، وخلق روح التعاون والاجتهاد بينهم كوظيفة تربوية وأخلاقية واجتماعية.

بل أصبح دورها يتوقف على العمل التقني والإداري المحض، من توثيق وتسجيلات وعقد اجتماعات، ومجالس الأقسام بصورة سطحية وشكلية، دون أن تناقش فيها الصعوبات التي تصادف المعلم أثناء أداء مهامه التربوي.

بل هي تلقي كل المسؤولية على عاتق المعلم وحده دون مساعدة منها، بل من يلجأ إليها من المعلمين لطلبها هو في اعتقادها ضعف منه، وقلة نفوذه، وسلطانه، وليست له القدرة على التحكم في تلاميذه، وتسيير قسمه.

4/ التفاعل بين المدرس و أولياء أمور التلاميذ:

إن دائرة التفاعل تمتد من حجرة الدراسة إلى خارجها، ومن الإدارة إلى خارج المدرسة مع أسرة وأولياء المتعلم.

فبدون التعاون بين البيت والمدرسة، وكذلك بين الأسرة والمدرس، قد يؤدي إلى فشل مجهودات المدرس، مما يترتب عليه تفهقر معنوياته نحو مهنته.

فيجب على الأسرة أن تشارك المدرسة في تربية و تكوين أبنائها، وأن لا تلقي المسؤولية كاملة على المدرسة وحدها، علما بأن الأسرة تعتبر أهم عوامل التنشئة الاجتماعية، وهي الممثلة الأولى للثقافة، وأقوى الجماعات تأثيرا في سلوك الفرد، وهي التي تسهم بالقدر الأكبر في الإشراف على النمو الاجتماعي له، وتكوين شخصيته، وتوجيه سلوكه فلأسرة وظيفة اجتماعية ونفسية هامة، فهي المدرسة الاجتماعية الأولى، وهي العامل الأول في صبغ الفرد بصبغة اجتماعية.

لكن الأسرة الجزائرية قل اهتمامها بأبنائها المتعلمين، فهي قليلة الإقبال على المدرسة من أجل متابعة أعمالهم وسيرتهم المدرسية، بل تجدهم يقومون بذلك بعد إجراء الامتحانات لطلب المساعدة لأبنائهم في الحصول على المزيد من النقاط، فأصبحت لديهم نظرة مادية للتعليم فالعلم بالنسبة لهم ليس من أجل التكوين والتعلم، بل من أجل النجاح فقط !.

وهكذا يتضح الدور الذي يلعبه علم الصحة النفسية في المدرسة، فعلم الصحة النفسية بمعناه الوقائي والعلاجي يقدم الأسس العلمية التي تجعل من العملية التعليمية في المدرسة عملية ذات فاعلية، ليس فقط في الوصول بها لتحقيق النجاح الأكاديمي، أو نقول التحصيل الدراسي بل أيضا الوصول بالتلميذ والمعلم إلى تحقيق درجة عالية من التوافق، والتأقلم مع الوسط المدرسي، وتوفير لديهم ما يعرف بالرضا النفسي، فيضمن للمتعلم نموا نفسيا سليما لبناء

شخصيته، كما يضمن للمعلم القدرة على المواصلة في العطاء، والإبداع دون الشعور بالملل والإحباط.

كما أن علم الصحة النفسية يحمي كل من المعلم والمتعلم من الوقوع في أخطار الاضطرابات والأمراض النفسية، وتساعدهم على استرجاع صحتهم النفسية التي يهددها ضغط المشكلات المدرسية، والمهنية، والتي قد تمتد جذورها عادة إلى التنشئة الاجتماعية الأولى، لأن عملية التربية عملية دائمة ومستمرة، لا تقتصر على عهد الدراسة في المدرسة، بل تمتد إلى حياة الفرد بكاملها من المهد إلى اللحد هذه الحياة التي تبدأ نفسها من مرحلة الاستيعاب بالتقليد والمحاكاة، وتنتهي عند مرحلة الإبداع والإنتاج، واجتماعيا من مرحلة الاعتماد على الغير، إلى مرحلة الاستقلالية وحب التحرر، والاعتماد على النفس.

المراجع والحواشي:

- 1- مصطفى خليل الشرقاوي، "علم الصحة النفسية" دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص 27.
- 2- أحمد زكي صالح، "علم النفس التربوي" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1972 ص 243.
- 3- سعيد جاسم الأسدي ومروان عبد المجيد إبراهيم "الإرشاد التربوي" دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2003، ص 137.
- 4- مجدي عزيز إبراهيم ومحمد عبد الحليم حسب الله "التفاعل الصفي،" عالم الكتاب، المنصورة، 2002، ص 134.
- 5- مصطفى خليل الشرقاوي، مرجع سابق، ص 326.
- 6- مصطفى خليل الشرقاوي، المرجع السابق، ص 326.
- 7- مجدي عزيز إبراهيم، محمد عبد الحليم حسب الله، مرجع سابق، ص 15.
- 8- مصطفى خليل الشرقاوي، مرجع سابق، ص 342 - 343.
- 9- مجدي عزيز إبراهيم، محمد عبد الحليم حسب الله، مرجع سابق ص 40.
- 10- مجدي عزيز إبراهيم، محمد عبد الحليم حسب الله، المرجع السابق ص 40.
- 11- سعيد جاسم الأسدي ومروان عبد المجيد إبراهيم، مرجع سابق ص 137.
- 12- سامي محمد ملحم "الإرشاد والعلاج النفسي والأسس النظرية والتطبيقية" دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2001 ص 334.